الكتاب السادس

نحن والحضارة الغربية

تأليف أبو الأعلى المودودي

تحليل وعرض أ.د. سليمان الخطيب

لا شك أن تجربة الحضارة الغربية، تعد درسًا خطيرًا لفهم مصائر الشعوب والحضارات، وهي جد مفيدة لبناء الفكر الإسلامي، لأنَّها صادفت أعظم ما تصادفه عبقرية الإنسان من نجاح، وأخطر ما باءت من إخفاق، وإدراك الأحداث من كلا الوجهين ضرورة ملحة للعالم الإسلامي في وقفته الحالية، إذ هو يحاول ما وسعته المحاولة أن يفهم مشكلاته فهمًا واقعيًا، وأن يُقَوِّم أسباب نهضته كما يقوم أسباب فوضاه تقويمًا موضوعيًا.

وقد شغلت الحضارة الغربية - كإشكالية فرضت نفسها - شغلت العقل المسلم، بعد قرون من تراجع الحضارة الإسلامية، وخاصة في زمن الاستعمار الغربي، الذي لم يكتف باستحلال المكان والجغرافيا والخيرات والمواد الخام، وإنّما حاول أن يفرض سيطرته وهيمنته الثقافية والمذهبية على مسار الواقع العربي والإسلامي، ومَثَّل نمط الحضارة الغربية حالة داخلية تركت آثارًا غائرة في واقعنا المعاصر، ما نزال نجني حصادها المرير حتى الآن.

واستطاع الغرب من خلال فصائل التغريب والعلمانية في واقعنا أن يفرض على المنهزمين في الحقل الثقافي والفكري، عناصر الخلل بين أوربا والعالم الإسلامي، وتمثلها ضمن معادلة الغلبة والضعف، أي جاء النتاج الفكري يتحدد ضمن مجال الإشكالية التي صاغها الغرب، هزيمة العالم الإسلامي، وانتصار أوربا الحديثة، لذا كان صدى وإعادة إنتاج - من وقع المغلوب الذي

يعترف للغالب بغلبته - للرؤية التي صاغها الغرب لتاريخنا بصفته الغالب الذي ملك حق تسمية المغلوب.

وعلى النقيض من تيار التغريب ومن إطاره من خلال المرجعية الغربية، تبلور تيار فكري، كان يجد في الإسلام، وفي جزء كبير من الميراث الفكري، مادة خصبة لبناء وعي مجتمعي مستقل عن منظومة المعارف الغربية وللتصدي لاختراقاتها الخارجية، والتي لم تفتأ تضرب الإسلام والنموذج الحضاري الإسلامي، وترى فيه سببًا للتأخر والتخلف لتحدث بذلك ثغرات في خصوصية الأمّة وميراثها الحضاري، بقصد إحداث الخلل ثم الانقضاض على هذه البيئة الحضارية، وذلك من أجل خلق البديل الغربي للنهضة.

ولم يسلم تيار الفكر الإسلامي الحديث، بهزيمة الإسلام والعرب أمام أوربا، ولم يصادق على النتائج التي أحدثتها حملتها سياسيًا وفكريًا، بل أكد على التواصل بين هذه الذات وماضيها الحضاري وهويتها العقيدية كمحور للفعالية نحو المستقبل، ويصبح من الضروري العودة إليه في مرحلة التخلف للتصدي للمسألة المركزية المتجسدة في الهيمنة الغربية، وخاصة على المستوى الفكري.

ومَثَّل كتاب «نحن والحضارة الغربية» للمفكر والعالم «أبو الأعلى المودودي» إضافة إلى المكتبة الإسلامية المعاصرة يُعد إسهامًا حقيقيًا في موقف المفكر المسلم المعاصر، من قضية الإسلام والغرب، حيث تمثل هذه القضية مفصلًا هامًا من مفاصل الجهود الإسلامية حول هذه الإشكالية التي لم تحسم حتى هذه اللحظة.

وفي بداية الكتاب يحدثنا «المودودي» عن أحوال الأمّة الإسلامية، حيث يؤكد على انحدار المسلمين أخلاقيًا وعلميًّا وحضاريًا، يقول المودودي: انحدر

المسلمون أخلاقيًا وعلميًا وحضاريًا ؛ وما زالوا في انسياقهم وراء المدنية الغربية المادية حتى صار كثير منهم يتباهى بالرطانة الفرنسية وأكثر منهم بالرطانة الإنكليزية، وراحت الثقافة الغربية تنخر عقولهم حتى أضحوا يمجّدون كل ما هو غربي ويسخرون من دين الإنسانية والعدل والصلاح، وكأن حال لسانهم يقول: إن هي إلاَّ حياتنا الدنيا.

وفي هذا الصدد يفرق - في إطار الغلبة الاستعمارية - بين نوعين من الحكم والسيادة:

إنَّ الحكم والسيادة، والغلبة والاستيلاء، نوعان: أحدهما الغلبة المعنوية والخلقية، والآخر المادية والسياسية. فأمّا الغلبة من النوع الأول فهي أن تتقدم أمّة من حيث قواها الفكرية والعلمية تقدمًا يجعل سائر الأمم تؤمن بأفكارها، فتتغلب نظراتها على الأذهان وتستولي منازعها ومعتقداتها على المشاعر وتنطبع بطباعها العقليات. فتكون (الحضارة) حضارتها و(العلوم) علومها و(التحقيق) ما تقوم به هذه و(الحق) ما هو عندها حق و(الباطل) ما تحكم هي عليه أنَّه باطل. وأمَّا الغلبة من النوع الآخر فهي أن تصبح أمة من شدة الصولة والبأس باعتبار القوى المادية بحيث تعود الأمم الأخرى لا تستطيع أن تحتفظ باستقلالها السياسي إزاءها. فتستبد هذه بجميع وسائل الثروة عند تلك الأمم وتسيطر على تدبير شئونها كاملة أو إلى حد ما. وكذلك الهزيمة والخنوع نوعان: أحدهما الهزيمة الفكرية والأخرى السياسية. وقس بيان هذين على ما سبق من بيان نوع الغلبة.

ثم إنَّه لما كانت الغلبة نتيجة القوة، والهزيمة عاقبة الضعف فإنَّ الأمم المتخلفة من الوجهتين المعنوية والمادية كلما تهبط في دركات الضعف والفتور تكون أصلح للعبودية وأكثر استعدادًا للخنوع، وتصبح الأمم القوية

بالاعتبارين المادي والمعنوي حاكمة على عقولها وأجسامها معًا.

إنَّ الغلبة والاستيلاء المعنوي يقوم بنيانه في الحقيقة على الاجتهاد والتحقيق العلمي، فكل أمّة تسبق غيرها إليه تتولى قيادة العالم وزعامة الأمم، وتستولي أفكارها هي على العقول. وأمَّا الأمّة التي تتخلف في هذا الطريق فلا تجد مناصًا من إتباع الغير وتقليده، إذ لا تبقى في أفكارها ومعتقداتها من القوّة والأصالة ما يكسبها السيطرة على الأذهان، فيجرفها تيار الأفكار القوية والمعتقدات الراسخة التي تتقدم بها الأمّة الباحثة المجتهدة، وهي تكون في وجهه كغثاء السيل، لا تستطيع أن تدافعه أو تثبت أمامه.

وبعد أن يقدم هذا التحليل لما آل إليه حال الأمّة الإسلامية في خضوعها للاستعمار، يقدم لنا إطلالة على تطور النزعة المادية في تاريخ الغرب.

وكان الصراع في بدء أمره بين دعاة حرية الفكر وبين الزعماء الدينيين، ولكن هؤلاء الزعماء لما كانوا يحاربون أنصار الحرية الفكرية باسم الدين لم يلبث أن تحول هذا الصراع إلى حرب بين حرية الفكر والنصرانية، ثم جعل الدين في نفسه - أيا كان - خصيم هذه الحركة وندها المحارب. وأصبح التفكير على الطريقة العلمية المنسقة شيئًا مضادًا لطريق الفكر الديني ومختلفًا عنه.

وفي القرن التاسع عشر بلغت المادية منتهاها. إذ جاء كل من فوغت (Vogt) وبوخنر (Bochner) وزولبي (Cxalbi) وكومت (Comte) ومولشات (Molshotte) ومَنْ لفَّ لفَّهم من الحكماء الفلاسفة يبطل وجود كل شيء ما خلا المادة وخصائصها. وقام مل (Mill) بإشاعة المذهب التجريبي (Empiricism) والمذهب النفعي (Utilitarianism) في الأخلاق. وعرض سبنسر (Spencer) بكل قوة وشدة النظرية القائلة بحدوث هذا الكون بدون خالق، وبظهور هذه الحياة من تلقاء نفسها. وجاءت موجة الاكتشافات العلمية في مختلف العلوم والفنون

كعلوم الحياة (Biology) والعضويات (Physiology) والحيوان (Zoology) وطبقات الأرض (Geology) وتقدم العلوم التجريبية وتكاثر الوسائل المادية، جاء بكل ذلك يؤكد ويثبت في نفوس الناس أنَّ هذا الكون قد حدث من نفسه ليس له خالق، وهو سائر في طريقه على قوانين معلومة وليس له خالق، وهو سائر في طريقه على قوانين معلومة وليس من ورائه مدبر، وقد بقي يتدرج في منازل الرقي بدون أن يكون لذات فوق الطبيعة أثر يعرف في هذه الآلة المتحركة بنفسها.

ثم كان لنظرية دارون (Darwin) في الارتقاء أوفر النصيب في تدعيم هذا المذهب المادي وإحلاله محل النظرية العلمية المنظمة القائمة على الأدلة والبراهين.

ويعد الحق وطهارة الأخلاق والنزاهة والأمانة والبر والحياء والتقوى والنظافة، ونظريتها على نقيض من نظرية الإسلام، وطريقها واسع في الجهة المعاكسة لطريق الإسلام. فكل ما يبني عليه الإسلام نظام الأخلاق الإنسانية والتمدن، تكاد هذه الحضارة تأتي عليه من القواعد. كما أنَّ الأسس التي ترفع هذه الحضارة عليها قواعد السلوك الفردي والنظام الاجتماعي لا يمكن أن يقوم عليها بنيان الإسلام ولو ساعة من الدهر.

ومن سوء المصادفات أنَّ القرن الذي بلغت فيه هذه الحضارة الجديدة أوج كمالها من المادية والدهرية والإلحاد كان هو القرن الذي ابتليت فيه ممالك الإسلام من لدن مراكش إلى الشرق الأقصى بغلبة أمم الغرب في الحكم والسياسة. فكان هجوم الغرب على الشعوب المسلمة في ميدان القلم والسيف معًا. وأصبح محالًا للعقول التي راعتها غلبة الغرب والسياسة وبهتها أن لا تتأثر بروعة الفلسفة والعلوم الغربية وببريق المدنية التي نشأت في أحضانها.

إنَّ المسلمين ليست فيهم السيرة الإسلامية ولا الخلق الإسلامي ولا الفكر الإسلامي، ولا شيء من الحماسة الإسلامية. إنَّ الروح الإسلامية الخالصة لا توجد في مساجدهم ولا في مدارسهم ولا في زواياهم ولم يبق من علاقة بين الإسلام والحياة العملية، وليس القانون الإسلامي بنافذ في حياتهم الفردية ولا في حياتهم الجماعية.

وليس هناك شعبة منن شعب الحضارة والتمدن يكون بتدبير أمرها قائمًا على الطراز الإسلامي الصحيح. ففي هذه الظروف ليس الاحتكاك في الحقيقة بين الإسلام والحضارة الغربية، بل هو بين حضارة المسلمين الخامدة الجامدة المتخلفة وحضارة نابضة بالحركة والحياة، شرق في جنباتها ضياء العلم وتدفئها حرارة العمل.

وكل ما يمكن أن يكون من نتائج هذا الاصطدام بين جانبين غير متساويين من حيث القوة والحيوية فهو ظاهر للعيان، وهو أنَّ للمسلمين لا يزالون يرجعون على أعقابهم في هذا المضمار ولا تزال حضارتهم تنهزم، وهم يتدرجون إلى أن يذوبوا في الحضارة الغربية تمامًا ويفتقدوا شخصيتهم المستقلة، وقد غلب قلوبهم وأذهانهم النزوع إلى الغرب في كل شيء، فلا تزال أذهانهم تنطبع بطابع الغرب، ولا تزال قواهم الفكرية والنظرية تتمرن على حسب المبادئ الغربية، ولا تزال تصوراتهم وأخلاقهم واقتصادهم واجتماعهم وسياستهم، لا يزال يتلون كل ذلك بلون الغرب، ولا يزال نشؤهم الجديد ينشأ على تصور أنَّ القانون الحقيقي للحياة هو الذي قد نزل إليهم من الغرب، فهذه الهزيمة هي في الحق هزيمة المسلمين، ولكنها لسوء الحظ تعتبر خطأ هزيمة الدين الإسلامي نفسه.

ثم يحدثنا المؤلف عن طبيعة ما حل بالعالم المعاصر، على المستويين الغربي والإسلامي، ويصورها كنكبة حلت بالإنسان:

سواء هذا الشرق أو الغرب، وهذه الأمّة المسلمة أو غيرها من الأمم، فقد حلت بها جميعًا نكبة واحدة، هي أنَّه قد استولت عليها حضارة نشأت في أحضان

المادية الخالصة. هذه الحضارة قد أسست حكمتها النظرية والعملية على قواعد خاطئة. وقد جرت فلسفتها وعلومها وأخلاقها واقتصادها واجتماعها وسياستها وقانونها وبالجملة كل ما يتصل بها، قد جرى كل ذلك من نقطة انطلاق منحرفة وبقى يخطو ويرتقي في وجهة غير صحيحة، حتّى انتهى إلى مرحلة ترى منها نهاية هذه الحضارة - وهي الهلاك - قريبًا.

ومن طريف الاستدلال أنَّ شرف المسلمين وكرامتهم وشوكتهم القومية متوقفة تمامًا على الغنى المالي، والغنى المالي يتوقف على الأخذ بأسباب الرفاهية والرقي الاقتصادي، ومدار كل هذا على جواز الربا. ويبدو أنَّ القوم لم يعلموا إلى الآن أنَّه أي شيء يتوقف عليه في الحقيقة الشرف القومي والقوة والعزة. إنَّ الثروة وحدها ليست الأمر الذي يضمن لأمّة من الأمم القوة والعزة والشرف. ولئن أصبح كل فرد من أفرادكم يملك الملايين من الجنيهات ولم تكن فيكم قوة السيرة والخلق، فثقوا بأنَّكم لن تكونوا على شيء من الكرامة والشرف في العالم. وإن كانت فيكم - بخلاف ذلك - السيرة الإسلامية، وكنتم أهل صدق وأمانة، نزهاء في الطمع والخوف، راسخين في مبادئكم وأمناء في معاملاتكم، تظنون الحق حقًا والواجب واجبًا وتراعون الفرق بين الحلال والحرام في كل حال، وكانت فيكم من القوة الأخلاقية أن لا تعدلوا عن سبيل الحق طمعًا في ربح أو خوفا من نقصان، ولا يكون من الممكن اشتراء إيمانكم بأيّة قيمة مهما غلت، إن كان فيكم كل هذا وقعت مهابتكم في قلوب الأمم ورسخ عزكم في نفوس العالم وكان كلامكم أرجح وأوزن من كل ما يملك أصحاب الملايين من الثروة.

وهو يفرق ـ في هذا الصدد ـ بين طبيعة المرض الحضاري عند الغرب وعند المسلمين:

هذا بالنسبة إلى أمم الغرب. وأمَّا الأمم المسلمة فتختلف حالها عن حال الأمم الغربية فالمرض عندها غير المرض، وأسباب المرض أيضًا مختلفة، إلاَّ أن علاج

مرضها هو العلاج الموصوف لأمم الغرب. وذلك هو الرجوع إلى ذلك المعلم وتلك الهداية التي قد أنزلها الله تعالى بصورة كتابه الأخير على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ.

ولأنَّ العقل المسلم المعاصر يعاني من أزمة واضحة وخاصة في مجال المناهج التي يستخدمها العلماء والدعاة في مجال التبليغ وعرض الإسلام، وفي هذا الصدد يرى الإمام المودودي أنَّ الأسلوب الذي قد اختاره علماؤنا اليوم لبيان تعاليم الإسلام وقوانينه إنّما ينفر البقية المتحلية بالتعليم الجديد عن الإسلام بدل أن يجذبها إليه، وإذا استمع المرء إلى مواعظهم أو اطلع على كتاباتهم فكثيرًا ما يدعو الله أن لا يكون إيقاعهم الناشز هذا قد بلغ مسامع غير مسلم أو مسلم منحرف. إنَّهم قد ضربوا حولهم جوًّا عتيقًا قد مرّ عليه قرن على الأقل. فهم يعيشون ذلك الجوّ الماضي ويفكرون فيه ويتكلمون بحسب أحواله.

ويحدثنا عن فشل الغرب في منع تناول الخمور، رغم كل الوسائل التي اتخذت في سبيل ذلك، ومقارنًا هذا الجانب بموقف الإسلام - ومن خلال التوجيهات الشرعية - حيث استطاع الإسلام أن يحرم وينهي هذه المشكلة في زمن قياسي حين ارتبط المسلم بتوجيهات الوحي المنزل:

فالإكثار من شرب هذه الأجناس الرديئة من الخمر أودى بصحة أهل أميركا وكثر فيهم الأمراض والأسقام.. وأمّا الذين تعدت إليهم آفات الخمر من طريق غير مباشر فأهلكتهم أو جعلتهم في حكم الأموات، فلم يعلم عددهم إلاَّ الله.

كذلك كثرت الجرائم، ولاسيما جرائم الصبية والفتيان كثرة فاحشة. وشهد القضاة الأميركيون أنَّه: «لم تعهد في تاريخ بلادنا هذه الكثرة الكاثرة من الصبيان المقبوض عليهم» .

إنَّ العقل والمنطق يقوم حكمهما الفيصل النهائي على التجارب والشواهد وحدها وشهادة التجربة عندهما مما لا يمكن أن يكذب أو يرد، فبين يديك الآن تجربتان اثنتان: تجربة أجريت في أميركا في العهد القريب وأخرى جرت في العرب في صدر الإسلام، والفرق بينهما ظاهر لكل ذي عينين، فلك أن توازن بينهما وتقارن، ثم تستخلص من ذلك ما قدر الله لك من العبرة.

وإن تدبرت أسباب هذا الفرق العظيم بين التجربتين، تبينت أمورًا هي كالأصول الكلية الثابتة لا في الخمور وحدها بل في جميع مسائل القانون والأخلاق.

ومن بركات هذا التشريع الرباني أنّه يضع بين أيدينا مقياسًا ثابتًا للمدنية والأخلاق لا يتزلزل. فلا يكون في قوانيننا الخلقية والمدنية أثر للتلون، ولا يمكن عندنا أن يصبح حرام الأمس حلالًا اليوم ثم يعود حرامًا غدًا، وإنَّما الحرام في الإسلام حرام إلى أبد الآباد والحلال حلال إلى يوم المعاد. وقد أسلمنا زمام مركبنا إلى حاذق تام البراعة واطمأننا إلى أنه سيجريه على الطريق المستقيم ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ ﴾ [إبراهيم:٢٧].

ومن ذلك كله يتضح ويثبت أن بعث الحاسة الخلقية في الإنسان وتنشئة الضمير المحاسب فيه ثم تزويد هذا الضمير من القوة بما يتغلب به على النفس الأمّارة، كل ذلك ليس من مقدور العلم والحكمة ولا هو في طوق العقل والمنطق، بل هو ممّا لا يحققه إلاَّ الإيمان وحده.

والحقيقة أنَّ هناك فرقًا أساسيًا عظيمًا بين الإسلام والقوانين الوضعية في تنظيم السلوك الإنساني، فالقوانين الوضعية تعتمد تمامًا على الرأي الإنساني، وهي مضطرة بطبيعة الحال إلى مراجعة الخاصة والعامة في كلياتها وأصولها بل في كل فرع منها، وشأن الرأي الإنساني – سواء كان للخاصة أم العامة – أنَّه لا يزال يتأثر في كل آن

بالعواطف والنزعات الإنسانية والأسباب والعوامل الخارجية وأحكام العلم والعقل القابلة للتغير - مما لا يلزم أن يكون صوابًا في كل حال، وهذا التأثر يؤدي إلى التغير في الأفكار والآراء، وبهذا التغير تتبدل بالضرورة مقاييس الخير والشر والصحيح والخطأ والجائز والمحظور والحرام والحلال، واضطراب هذه المقاييس يكره القانون على أن يميل معها حيث مالت، وبذلك لا يتحقق للأخلاق المدنية مقياس ثابت مستحكم غير قابل للتغير، بل يتحكم تلون الطبع الإنساني في القانون وتلون القانون في الحياة الإنسانية.

ثم يصور لنا المصير الذي ينتظر الحضارة الغربية، وذلك من خلال قانون الدورة التاريخية الذي يعد سنة من سنن الله تعالى:

لشد ما تندهش العقول لما ترى من هذا الرقي العجيب الذي حازته أمم الغرب في ميادين السياسة والتجارة والصناعة والحرف والعلوم والفنون. وإنَّه ليخيل إليها أنَّ رقي هذه الأمم الغربية أبدي سرمدي، وأنَّه قد قضي الأمر بدوام غلبتها واستيلائها على العالم، وأنَّها قد اختصت - دون غيرها - بالحكم على البسيط الأرضي والسيطرة على عناصر الكون، وأنَّ قوتها قد بلغت من الشدة والرسوخ أن لا يمكن استئصالها.

لا تزال أحداث هذا العالم تجري وتتحرك فيما يشبه حركة دورية. فالولادة والموت والشباب والشيخوخة والقوة والضعف والربيع والخريف والنضارة والذبول، كل أولئك وجوه مختلفة لتلك الحركة الدورية.

تلك سنة الله فيما خلق، وهذه السنة كما هي جارية في سائر الموجودات، هي جارية أيضًا في الإنسان، سواء في حالته الفردية أو في حالته الجماعية القومية ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب:٦٢].

وإنَّ سنة الله هذه نراها تتكرر اليوم أمامنا، فوبال الأعمال السيئة التي ذاقته الأمم السالفة قد أحاق اليوم بالأمم الغربية، وذلك أنَّه قد أنذرت هذه الأمم بكل وجه ممكن للإنذار. فآفات الحرب العالمية ومشكلات الاقتصاد وازدياد التعطل وانتشار الأمراض الفتاكة وتبدد النظام العائلي، كل أولئك آيات بينات، لو تأملوها لعلموا أنَّ كل ذلك ثمرة ظلمهم وعتوهم واتباعهم للشهوات وإعراضهم عن الحق.

ويشير المودودي أيضًا إلى الفساد الأخلاقي والاجتماعي الذي تعيشه هذه الحضارة:

فمن القواعد الكلية التي أثبتها القرآن أنَّ الله تعالى ليس بظالم، حتى يهلك أمّة بلا سبب وهي تعمل صالحًا (وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ) هود / ١١٧، وليس المراد بهذا الإهلاك والتدمير أن تقلب طبقات البلاد ويورد العمران الإنساني حياض الموت فحسب، بل من صور الإفناء والتدمير أيضًا أن يشتت أمر الأمم وتكسر قوتهم الاجتماعية وتضرب عليهم الذلة والعبودية والخزي. وبحسب هذه القاعدة القرآنية لا يصيب أمّة ما أي نوع من أنواع الدمار والخراب إلاَّ إذا تركت منهج الخير والصلاح، وأخذت تسلك مناهج الشر والفساد والعتو والعصيان، وبذلك ظلمت نفسها بنفسها. وإنَّ الله تعالى حيث ما ذكر في كتابه أمّة أصيبت بعذاب وهلاك قد ذكر بجانب ذلك جريمتها أيضًا إثباتًا لتلك القاعدة، حتى يتبين للناس أنَّ وبال أعمالهم السيئة هو الذي يفسد دنياهم وآخرتهم ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٠].

والأمر الآخر الذي يستخرج من هذه القاعدة هو أنَّه لا يكون باعث الهلاك والدمار هو الفساد الفردي بل هو الشر والفساد الاجتماعي القومي.

لأجل ذلك يبين للمسلمين مرة بعد أخرى أنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو خصيصتهم القومية التي يجب أن تتحقق في كل رجل منهم وامرأة.

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ٧١].

﴿الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢].

﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [الحج: ٤١].

ثم ينتقل بنا المؤلف إلى الحديث عن عبادة العقل في الغرب، والآثار السيئة التي ترتبت على هذا المنحى المعرفي:

إنَّ التأثير الذي يؤثره التعليم الغربي والحضارة الجديدة في الأفكار الدينية لشبابنا الذين يكونون ناقصين في التعليم والتربية الإسلامية أو غير ناضجين، قد يقدره المرء مما يصدر عن أمثال هؤلاء من الكتابات والخطب بين حين وآخر.

إنَّ هؤلاء المتجددين الذين أبدوا آراءهم في الشئون الدينية فإنَّ السامع يتبين من كلامهم أنَّهم يتكلمون بلا تفكير أو شعور. فلا المقدمات من كلامهم تصح ولا هم يرتبونها على الأسلوب المنطقي ولا هم يحاولون الاستنتاج السليم.

إن من لم تطمئن نفسه إلى المبادئ والأحكام، والقوانين التي يقوم عليها دين من الأديان، ولم يشهد قلبه بصدقها وقصر عقله عن إدراك علتها ومصلحتها، وكان

يظن أن بعضها أو أكثرها موضع النقد والاعتراض، فأمامه طريقان اثنان يختار بينهما: إمَّا أن يترك ذلك الدين، ليكون له الحق في أن ينقد كل ما يشاء من ضوابطه وأحكامه بحرية، وإمَّا أن يجتنب المظاهرة عليه، إذا هو أحب البقاء في دائرته على رغم عدم طمأنينته إليه. وبدل أن يلبس لبوس المجتهد وينحى على ضوابطه وقوانينه بمعول الهدم والتخريب يجب أن يقف منه موقف الطالب للعلم ويجتهد لحلّ ما يخالجه من الشكوك والشبهات في بابه.

أمَّا العقل والمنطق فلا يستسيغ إلاّ هذين المذهبين من مذاهب سلوك المرء وكل رجل عاقل إذا رأى نفسه في مثل هذه الحال لابد أن يختار أحد هذين المذهبين لا غير.

وإذا كان يزعم أحد أن مشعل الدين كان يمكن أن يضيء في ظلام العصر الماضي ولكنّه لا يمكن أن يضيء في عصر النور هذا، فإنَّه ليخيل إلينا أنَّ التاريخ يعيد نفسه.

والأشياء التي يسمونها اليوم «العلوم الجديدة» و«الاكتشافات العصرية» لعهد السالفين، وإنَّ هذه الأساليب المبتكرة للعمل والتفكير أيضًا ستبلى وتندرس لا محالة مع مرور الزمن.

وهناك من أدعياء المعاصرة والعقلانية من بني جلدتنا من يحاول أن يطبق منهجية التجريب والتعديل - كما في العلوم الكونية والطبيعية - على الدين والحياة الروحية:

إنَّ التهيب من العلوم الجديدة والاكتشافات العصرية والنظر إلى الدين بقصد الإصلاح والترميم، إنَّما هو مذهب من قد رسب في نفوسهم أنَّ كل جديد هو العلم والاكتشاف، ومن اللازم لمسايرة العصر أن يتقبله المرء أو يؤمن به وإن كان مجرد قياس أو نظرية وكان القوم لم يمتحنوه على محك النقد الصحيح ببصيرة علمية نافذة. وهؤلاء هم الذين قد أولعوا بابتداع الأساليب المبتكرة للعمل والتفكير وإن

كانوا لا يعرفون كيف تبتدع تلك الأساليب وأي الأساليب تكون رشيدة معقولة وأيّها تكون سخيفة صبيانية. وكذلك أضحى الادّعاء بسبوغ نعمة «حرية الفكر والخيال» من خصيصة أهل النظر السطحي، ولكنّهم لا يعلمون أن مجرد حرية الفكر والشعور فتنة وحالة خطرة إن لم يصبحها علم واسع محكم ونظرة بالغة عميقة وذهن متوازن صحيح الفكر وكل هذا مما لا تجود به الفطرة للناس بالسخاء الذي يفرضونه في هذه الأيام.

ويقارن المؤلف بين تجربة الحضارة الإسلامية في التعامل مع الوافد الثقافي والفلسفي في عصر الترجمة، وبين تجربتنا المعاصرة في التعامل مع الآخر:

إنَّ حضارة المسلمين على كل ما يوجد فيهم من انحلال العقائد وفساد الأعمال كانت تقوم على تلك الدعائم والأركان التي رفعها الإسلام. ومع أنَّ استيراد الأفكار اليونانية والفارسية في المجتمع المسلم نشر كثيرًا من الضلال إلاَّ أنَّ هذه الأفكار الطارئة لم تنجح إلى حد أن تقلب وجهة نظر المسلمين وتجعل تركيب عقليتهم شيئًا متنافيًا مع الإسلام ولم يبلغ من تأثيرها فيما لديهم من قوى العقل والفكر والتمييز أن يتركوا النظر بنظرة المسلم والتفكير بذهن المسلم.

وكذلك إنَّ ارتقاء المدنية والحضارة، وإن انحرف كثيرًا عن السبل التي خططها الإسلام، بتأثير المؤثرات الخارجية، إلاَّ أن المبادئ التي رفعت عليها قواعد هذه الحضارة والمدنية بقيت موجودة في أساسها، ولم تحل محلها مبادئ الحضارة والمدنية الأخرى المعارضة.

وفسد كذلك نظام التعليم الرائج بين المسلمين كثيرًا ولكنه كان للعلوم الدينية فيه مكان ملحوظ أبدًا. ولم يكن أي فرد متعلم من المسلمين يكون غير عارف بالعلم الأساسي الابتدائي – على الأقل – للعقائد الإسلامية.

وبعد هذه الجولة التي قدمها «المودودي» في تحليل حقيقة الغرب وحضارته، والتي أبرز من خلالها سيطرة النزعة المادية على مسار هذه الحضارة، يُذَكِّر المسلم المعاصر بأهمية العودة إلى تفضيل الجانب الإيماني على سلوك الأمّة، وأهمية ذلك على مصير الواقع الإسلامي المعاصر، ويبرز ذلك من خلال أهمية الطاعة لأوامر الشرع كبرهان على تغلغل الناحية الإيمانية في الشخصية المسلمة:

إنَّ التنظيم الاجتماعي مهما كان نوعه ومهما كانت أغراضه وأهدافه يفتقر أبدًا لقيامه وثباته ولنجاحه وتوفيقه إلى أمرين اثنين: أولهما أن تكون المبادئ التي شكلت عليها الجماعة راسخة في نفوس الجماعة كلها وفي ذهن كل فرد من أفرادها، ويكون كل فرد من الجماعة حريصًا عليها ومؤثرًا لها على كل شيء آخر. والآخر أن تتأصل في الجماعة ملكة الطاعة والسمع فتطيع الجماعة من انتخبته أميرًا عليها وتتبع أحكامه وتلتزم ما يقرره لها من قانون أو ضابط ولا تتعداه أبدًا. فهذان شرطان لابد منهما لنجاح كل نظام. وكل نظام سواء أكان عسكريًا أم سياسيًا أو عمرانيًا أم دينيًا لا يمكن أن يقوم بدون هذين الشرطين ولا أن يبقى ويستمر، ولا أن يبلغ غايته بدونهما.

إنَّ الذين لا يستعملون عقولهم وأفهامهم ولا يميزون بأنفسهم بين الصحيح والزائف، بل يقلدون غيرهم تقليدًا أعمى، يحكم عليهم القرآن الكريم بأنَّهم (صم بكم عمي فهم لا يعقلون). ويشبههم بالأنعام بل يجعلهم أحط منها لأنَّ الأنعام غير ذوات العقل، وهؤلاء ذوو عقول ولكنّهم لا يستعملونها (أولئك كالأنعام بل هم أضل. أولئك هم الغافلون).

وهذه الحقيقة قد جاء القرآن الكريم صريحًا في بابها فهو يقول إنَّه إذا أتى الإنسانَ المؤمنَ أمرٌ من عند الله تعالى فلا يكون له أن يؤمن به أو لا يؤمن كما يشاء ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

ويختتم الإمام «المودودي» مؤلَّفه بالتأكيد على شمول المذهبية الإسلامية للحياة بشقيها - الإيماني والعملي - حتى يستطيع الإنسان المسلم أن يعود ليمسك بمشعل الحضارة من جديد في ظل الكيانات المعاصرة:

إنَّ الدين الإسلامي ليس بعقيدة فحسب، ولا هو مجموعة لعدد من الأعمال والطقوس الدينية ليس إلاَّ. بل هو برنامج تفصيلي لحياة الإنسان الكاملة، ليست العقائد والعبادات ومبادئ الحياة العملية وضوابطها فيه أشياء مختلفة منفصلة بعضها عن بعض، بل تتلاحم هذه كلها فيه وتؤلف مجموعة لا تقبل التجزئة، ويكون بين أجزائها كمثل الارتباط الذي يكون بين أعضاء الجسم الحي.

والكتاب محاولة للمودودي في تحليل حقيقة ومصير الحضارة الغربية، وقد صيغ الكتاب بأسلوب يغلب عليه الطابع الدعوي والإنشائي وكان من الممكن أن يكون على قدر من المنهجية الفكرية الأكثر وعيًا بالعديد من القضايا والمشكلات التي أغفلها محتوى هذا المؤلَّف، وهذا لا يمنع التأكيد على كونه يؤدي فائدة لقطاع عريض من القراء المسلمين الذين لا يستطيعون سبر أغوار العمل العلمي المتعمق في دراسة ظاهرة ما.

*****

obeikan.com